المحاضرة الأولى:

مدخل:

مفهوم المدرسة:

يشيع منذ بزوغ بوادر البحث النحويّ في العصر الحديث مصطلح **المدارس النحوية**، فأطلقت على مذاهب وتجمعات فكريّة نحويّة موحّدة اسم مدرسة، فقيل المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية والأندلسية فالمصرية فالمغربية وهلم جراً ،ولو جاز أنْ يسمّي كلّ واحد منّا بلداً ما اشتغل بالنحو مدّة قصيرة بمدرسة لأصبح كلّ بلد عُنِي بالنحو مدرسة ،وما كان لذلك أن يحصل ؛لأنّ مصطلح مدرسة تحدّه حدود المعاني والاستعمال، ولتبيين ذاك الأمر وددنا أنْ نستعرض المقصود بالمدرسة حتّى يتسنّى لنا استخدامه بدقّة.

يرجِع استعمال مصطلح (مدرسة) إلى الجذر (دَرَسَ) بمعنى عَفَا وامَّحَى، فدرس الكتاب يدرسُه دَرْساً ودرَاسَةً...كأنّه عانده حتّى انقاد لحفظه[1]، أمّا صيغة(مدرسة) فهي اسم زمان ومكان (كالمفعل) فإذا قلنا (مَدْرَسٌ) فهو مكان أو زمان الدراسة دون تكرار أو كثرة، أمّا إذا قلنا مدرسة (مَفْعَلَةٌ) فالمراد الكثرة والتكرار، لذا فالمدرسة للمكان الذي يتكرّر فيه التدريس والتعليم ويكثر، فهل يصحّ أن يُطلق هذا المصطلح على تلك المذاهب النحوية والتجمعات الفكرية، التي كانت تنشط بمصر من الأمصار العربية[2] .؟

هذا السؤال الذي حاول كثير من الدارسين الإجابة عنه، لم يكن فيه فصل نهائي، إذ قضى كلّ عالم فيه حسب هواه، واضطرب في الإجابة عنه آخرون.

وإذا ما بحثنا عن أوّل استعمال لمصطلح (مدرسة)، فإنّنا نجد أنّ المحدثين هم الذين بادروا باستخدام مصطلح مدرسة، لمّا رأوا الأوربيين يتداولونه قبلهم[3] .

---

[1] – لسان العرب مادة(درس) دار صادر.

[2] –ينظر المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير،عبد الأمير محمد أمين الورد،المكتبة العصرية بغداد،ط1، 1997م،ص6

[3] –ينظر المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير،ص07

وتذكر الدراسات أنّ أوّل من بادر بذلك هو المستشرق "جوتولد فايل"، حينما اعتنى بكتاب الإنصاف للأنباري في طبعة ليدن سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وألف، فعبّر حينها بالمدرسة البصرية والمدرسة الكوفية[1]،ثم استخدمه من بعده كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي فقال: «وقد قسّم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد»[2]،ومن العرب المحدثين نجد مهدي المخزومي الذي أسمى كتابه مدرسة الكوفة، وسمّى شوقي ضيف كتابه المدارس النحوية، وضمّ فيها خمس مدارس البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية والمصرية[3] .

وتعني المدرسة عندهم – والحال هذه- «مجموعة من النحاة الذين كوّنوا درساً نحوياً في بيئة معينة سواء أضمهم منهج موحد خاص بهم له أسسه وأصوله وقواعده المعروفة المستقلة أم كان مبنياً على منهج من سبقهم إلاّ أنّهم استقروا في بيئة أخرى وتأثروا بظروف تلك البيئة الجديدة بعض التأثر»[4].

على أنّ مصطلح مدرسة لم يقل به أسلافنا من العرب، بل وفد إلينا- في أحسن تقدير- من الغرب، إذ كانت لديهم مدارس أدبية كالمدرسة الرومانسية والمدرسة الكلاسيكية وغيرها ،ويقابل هذا المصطلح في الموروث العربي مصطلح (مذهب) الذي شاع عند الفقهاء، فأطلقوا على فقه ابن حنيفة مثلاً المذهب الحنفي، وعلى فقه الشافعي المذهب الشافعي وهكذا[5]،فالقدماء لم يطلقوا مصطلح (مدرسة) بل كانت هناك مصطلحات أُخر يتداولونها، كقولهم أهل البصرة أو ينسبونهم إلى بلدهم مباشرة كقولهم: الكوفيون أو البصريون[6].

ويبدو – فيما نحسب- أنّ الذي أشار إلى مصطلح (مذهب) هو الزبيدي في طبقاته، حينما ترجم لأبي موسى الحامض النحوي فقال: «وكان بارعاً في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين»[7]،واستعمل مصطلح المذهب ابن النديم في الفهرست كذلك، وتوالت المؤلفات في ذلك[1].

---

[1] -ينظر المدارس النحوية بين التصور والتصديق،ص9

[2] -تاريخ الأدب العربي،كارل بروكلمان،نقله إلى العربية عبد الحليم النجار،دار المعارف القاهرة،ط4، ج2،ص124، 125

[3] -ينظر المدارس النحوية، خديجة الحديثي،دار الأمل اربد،الأردن،ط3، 1422هـ/2001م، ص13 والمدارس النحوية شوقي ضيف،ص373

[4] -المدارس النحوية الحديثي،ص13

[5] -ينظر المدارس النحوية أسطورة واوقع،إبراهيم السامرائي،دار الفكر ،ط1،1987م، ص139

[6] -ينظر المدارس النحوية الحديثي،ص7، 8، 9

[7] -طبقات اللغويين والنحوين،الزبيدي،تح محمد أبو الفضل إبراهيم،دار المعارف القاهرة ط2،ص146

يتبيّن من هذا أنّ القدماء لم يستخدموا مصطلح المدرسة ألبتة،إذن فما الذي حمل المعاصرين على استخدام مصطلح (مدرسة)؟.

لعلّ الراجح في هذا هو السير قدماً نحو المعاصرة ؛أي مواكبة ما يستخدم ويشيع في عصرنا، وفي وقتنا الراهن من مصطلحات وتراكيب وأساليب[2]،ولا يصح بهذا أنْ يُطلق مصطلح مدرسة على تلك الجماعات التي تعاطت النحو القديم للحاجة الملحّة له آنذاك، ولم تختلف إلاّ في فروع المسائل لا في أصولها،وقد تبنّى إبراهيم السامرائي هذا الرأي.

وقد لقي هذا معارضة شديدة بلهجة أشدّ من مهدي المخزومي مؤلف كتاب مدرسة الكوفة، وهذه الثورة طبيعية من المخزومي إذ كان السامرائي لا يؤمن بالمدرسة الكوفية[3]،وقد كان المخزومي يثبت وجود مدرستين فقط، وهما البصرية والكوفية.

وقد نفى علي أبو المكارم من المحدثين وجود مدارس أصلاً؛ لأنّها لا تمثل سوى«تجمعات مدنية وهذه التجمعات تتحرك في إطارات متشابهة، وتطبق أصولاً واحدة، وإنْ اختلفت فيما بينها في بعض الجزئيات فإنّه اختلاف لا ينفي عنها وحدة المنهج واتفاق الأصول»[4]،ويؤكد أبو المكارم جازماً أنّ منهج الدراسة النحوية واحد لا أكثر من ذلك، وذاك المنهج تحكمه قواعد عامة لم يَحِد عنها النحاة سوى في تفاوت بعضها تأثيراً[5] .

فإذا كان هذا موقفهم من وجود مدرستين فما بالك بوجود مدارس أخر غيرهما؟

لقد ألّف مهدي المخزومي كتاباً أطلق عليه "**الدرس النحوي في بغداد**" إيماءً منه أنّ النحو في بغداد لا يرقى إلى المدرسة، وأنّ المدارس اثنتان البصرية والكوفية، ولم يطلق على النحو في بغداد حتّى مصطلح (مذهب)؛ لأنّه لا يرقى كذلك إلى المذهبيّة كما يعترف بذلك، إذ يقول على كتابه ذاك: « ولم أجعل عنوان هذا الكتاب مدرسة بغداد أو مذهب بغداد في النحو لأنّ مدرسة الكوفة أدق في الدلالة

---

[1] –ينظر المدارس النحوية الحديثي،ص11 وما بعدها

[2] –ينظر المدارس النحوية أسطورة وواقع،ص140

[3] –ينظر نفسه،ص157،وما بعدها

[4] – تقويم الفكر النحوي،علي أبو المكارم، دار غريب القاهرة،2005م ص268

[5] –المرجع نفسه،ص268

على ما يراد بمدرسة بغداد»[1]؛لأنّ نحاة بغداد بعد ثعلب اختلفوا وانقسموا إلى اتجاهين بين البصريين والكوفيين.

من هنا فالمخزومي لا يقرّ إلاّ بمدرستين لا أكثر، ولم يقتصر هذا الموقف عليه فحسب بل امتدّ إلى علماء كُثر ؛أي عدم وجود مدرسة ثالثة، بينما أيّد وجودها علماء آخرون، كأحمد أمين ومحمد طنطاوي وسعيد الأفغاني وأحمد مكي الأنصاري ومازن المبارك[2] .

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإنّنا نستنتج منه أنّ مصطلح مدرسة لا ينطبق إلاّ على تجمع علمي لنحاة، لهم منهج موحّد خاصّ، يربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد له خصائصه التي تميزه عن غيره[3]، وهذا ربّما ينطبق على مدرسة البصرة، وقد يتجاوز ذلك إلى مدرسة الكوفة.

ولقد حاول بعض الدارسين أن يخرجوا من هذه المشاحنات، فأجازوا استعمال مصطلح مدرسة ومذهب واصطلاحات أُخر؛ لأنّها لن تغيّر من الأمر شيئاً، فلن تقدّم أو تؤخر[4].

[1]– الدرس النحوي في بغداد ،مهدي المخزومي، دار الرائد العربي بيروت ط2، 1407/ 1987م ، ص10

[2]– ينظر المدارس النحوية بين التصور والتصديق،ص11، 12، 13

[3]– ينظر المرجع نفسه،ص15، 16

[4] –ينظر المدارس النحوية ،الحديثي،ص23، 24